كلّ واحدٍ منّا هو مشروع قدّيس

المتروبوليت نيقولاوس أسقف ميسوغيا ولافريوتيكي[1]

كلّ واحدٍ منّا هو مشروع قدّيس، حتّى وإن كنّا لا نؤمن بذلك الآن! يَعتبِر المتروبوليت نيقولاوس (خادزينيكولاو)، مطران ميسوغيا ولافريوتيكي، وهو أسقفٌ من الكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانيّة، أنّ "عدم الإيمان" هو أثمن خبرةٍ في الحياة الروحيّة.

"لم أكن بحاجةٍ إلى قصصٍ وحججٍ من أحدٍ عن المسيح؛ كنتُ أبحث عن اختبار حضوره"

س: يا سيّدنا نيقولاوس، لماذا يحمل "عدم الإيمان" معنًى وقيمةً بالنسبة إليك؟ بصراحة، إنّه لأمرٌ غير مألوفٍ أن نسمع هذا من متروبوليت...

ج: لأنّ الربّ يكشف عن نفسه فقط لأولئك الذين يشكّون بصدقٍ في وجوده. أنا شككتُ. عندما كنتُ في السابعة عشرة، قلتُ بصراحة: "أنا مُلحِد".

س: هل استمرّ ذلك طويلاً؟

ج: حتّى بلغتُ الثانية والعشرين تقريبًا. ما زلتُ أعتقد أنّه من الأفضل لكم أن تشكّوا بتواضعٍ وأنتم عند سياج الكنيسة، بدلاً من التباهي بكونكم داخل السياج [بينما أنتم غير مؤمنين فعليًّا]. إنّ أفضل معلميَّ في الإيمان لم يكونوا اللّاهوتيّين "المحنَّكين" أو رجال الدين بالوراثة، بل أولئك الذين خاضوا "مرحلة ابتداءٍ" في عدم الإيمان.

[1] هو متروبوليت أبرشية ميسوغيا ولافريوتيكي اليونانية منذ العام 2004. درس الفيزياء في اليونان ثمّ الفيزياء الفلكيّة في جامعة هارفارد ومعهد MIT، وعمل باحثًا في وكالة الناسا. ثمّ درس اللاهوت وترهّب، والتحق بدير سيمونوبترا في جبل آثوس الذي أرسله ليخدم في أمطش الدير في ضواحي أثينا، قبل أن يُنتخب مطرانًا. أسّس المركز اليونانيّ لأخلاقيات علوم الحياة ونال دكتوراه في اللاهوت في هذا الاختصاص، ويشغل منذ العام 1998 منصب رئيس لجنة مجمع كنيسة اليونان لشؤون أخلاقيات علوم الحياة.

س: من الغريب سماع هذا من شخصٍ يونانيّ، فالأمر يشبه ما حصلَ في التاريخ الروسيّ الحديث.

ج: تدرك اليونان حقًّا أنّها تعيش ضمن التقليد المستمرّ منذ ألفَي عام، أمّا عندكم [أي الروس] فكلُّ شيءٍ يولَدُ من جديدٍ حقًّا! وهذا يفسّر اللَّون والنضارة الفائقَي الوصف في حياة الكنيسة لديكم. إنّها ثورةٌ للروح! إنّه أمرٌ فريدٌ في تاريخ البشريّة وذو دلالةٍ للأرثوذكسيّة في جميع أنحاء العالم، لأنّ إيماننا ليس من هذا العالم. ولهذا السبب، لم أرغب في الإيمان في شبابي لمجرّد أنّه "يجب عليَّ ذلك". لم أكن بحاجةٍ إلى قصصٍ وحُججٍ من أحدٍ عن المسيح، كنتُ أبحث عن اختبار حضوره. غير أنّه لم يأتِ. واعترفتُ قائلًا: "أنا لا أعرف شيئاً عنه". الإله الحقيقيّ هو الذي يستحيل العيش من دونه. والكنيسة تحيا به لأنّه ليس مجرّد مجموعة آراءٍ لأناسٍ معيّنين عنه؛ بل هو الحياة نفسها.

بما أنّكما فيزيائيّان... الدروس الأولى في آثوس

س: حتّى القدّيس باييسيوس الآثوسيّ مرَّ بحالةٍ من عدم الإيمان في مراهقته. هل التقيتَ بالشيخ باييسيوس بينما كنتَ لا تزال غير مؤمن؟

ج: نعم، ولم أفهمه. أستطيع القول إنّني كنتُ خائفًا. كان من الواضح أنّه قادرٌ على كشف حياتي أمامي، شعرتُ بذلك لكنّني لم أستسلم. حاولتُ الخروج من تحت تأثيره. فكّرتُ في نفسي قائلًا: دعهُ يتدرّب على آخرين.

في أوّل زيارةٍ لي مع أخي إلى قلّايته، أتذكّر أنّه سألنا: "ماذا تعملان أيّها الشابّان؟". أجبناه: "نحن فيزيائيّان". فقال: "اسمعا! بما أنّكما فيزيائيّان، عليكما تحقيق الأمر الأساسيّ، وهو تفكيك ذرّة الأنا لديكما. حينها، ستنطلق طاقةٌ خفيّةٌ تُمكّنكُما من الإفلات من جاذبيّة الأرض واحتضان الشمس العقليّة، التي هي المسيح".

أعجبني جدًّا كيف فتحَ لنا آفاقًا روحيّةً باستخدام لغة العلم المألوفة لنا. وبمرور الوقت، أصبحت هذه الآفاق بالنسبة لي أكثر إثارةً للاهتمام حتّى من الأعماق الكونيّة.

في زيارتنا الأولى للشيخ، سمعتُ كيف سأل طالبٌ ثانويٌّ بركته ليصبح مبتدئًا، فمازحَهُ الشيخ قائلًا: "هل أنهيتَ الجامعة؟!". وعندما أجابه الطالبُ بحزنٍ أنَّه لا يزال في المدرسة الثانويّة، قال له الشيخ: "أنا لا أقبل إلّا مَن يحملون شهادةً جامعيّة!". أتذكّر ذلك...

هل تعلم بماذا جعلنا القدّيس مهتمَّين أيضًا في زيارتنا الأولى؟ قال: "لا أعرف ما العلوم التي تدرسانها هناك في جامعتيكما، لكن إذا جئتُما إلى هنا، إلى الجبل المقدَّس آثوس، فافهما أنّنا هنا ندرس علمًا طبيعيًّا واحدًا فحسب: القداسة. إذا أحبَّ شخصٌ الله فوق كلِّ شيء، يشعر بأنّ بشرته تلين، ويذوب كلُّه مثل الشمع، إذ يتلقّى نارَ برَكة الله. وهكذا تتحرّر النفسُ البشريّة...".

لم أفهم الأمر في ذلك الوقت... لكنّ الشيخ تابع قائلًا:

"ثمّة رجل" (وأعتقد أنّه كان يتحدّث عن نفسه)، "ينتقل أحيانًا إلى أماكن أخرى على الكوكب". هل تتخيّل كيف كان وقعُ سماع هذا على فيزيائيَّين؟! "في أثناء صلاته هنا، في آثوس، خطفَهُ الربُّ وحملَه إلى منطقة بحر قزوين... وأعطاه تكليفًا. عندما أتمّه، أعاده الله. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟ وما الدليل على أنّه قد حدثَ فعلًا؟ عندما عاد إلى قلّايته، رأى فجأةً في يده زهرةً لا تنمو إلّا في منطقة قزوين...".

لم أصدّقه حينها. كنتُ أرى كلَّ شيءٍ بعقلانيّةٍ مفرطةٍ في ذلك الوقت. ما زلتُ لا أعرف إلى أيِّ مدىً تمكّنتُ من تفكيك ذرّة "الأنا" لديّ؛ ولكن، على الأقلّ، ليست لديّ الآن مشكلةٌ في استيعابِ قصصٍ كهذه.

"لا تعود تسأل: هل الله موجود؟ فأنتَ تراه!"

س: وبعد ذلك، تمكّنتَ أيضًا من العيش بجوار الشيخ باييسيوس؟

ج: نعم، ساعدَتْني شهادتي الجامعيّة [يضحك]. ذهبتُ وأريتَهُ شهادتي وذكّرتُه بكلامه... إلّا أنّه، عمومًا، لم يكن يضمُّ إليه أحدًا.

سأخبرك، ثمّة فرقٌ بين أن تسمع أمرًا عن قدّيس، وأن تقرأ عن أعماله، وأن تلتقي بقدّيس، وأن تعيش مع قدّيس. عندما تجد نفسكَ قرب شخصٍ كهذا، مثل الشيخ باييسيوس، تتيّقن بأنّ الربَّ حيّ. إنّه حقيقيٌّ وأنتَ تتواصل معه. لا تعود تسأل: هل الله موجود؟ فأنتَ تراه!

س: أي أنّ المعرفة في الكنيسة هي دائمًا اختبار؟ وهل هذا بالتحديد هو الفرق بين الإيمان والمعرفة العلميّة؟

ج: تُوسِّعُ قوّةُ الإيمان وعيَكَ إلى ما هو أبعد من العقلانيّة التي تُلازِم هذا الوعي. الله أكبر من مفاهيمنا عنه. أولئك الذين يبحثون عنه بعقلهم لن يجدوه، لأنّ إلهًا كهذا غير موجود. لا يوجد إلهٌ يمكن استنتاجه من معادلة (equation) الحياة وإثباته منطقيًّا. يولَدُ الإله الحقيقيّ في القلب في خبرة الإيمان، وهكذا يجري التغلُّب على الموت.

أنا حقًّا أحسد، بطريقةٍ حسَنة، أولئك الشباب الذين دخلوا الدَّير قبل أن يتسمَّموا بالشكّ والبراغماتيّة والعقلانيّة. فأذهانهم (Nouses) لم تسقط إلى الأرض. وإلّا، فإنَّ عقلًا مثل عقل هؤلاء سيُعيق البحثَ عن الله. من المستحيل إدراك الله بعقلٍ كهذا.

يستطيع الله أن يكشف عن نفسه. وهو يفعل ذلك فقط إذا تواضعتَ، معترفًا بأنّ عقلكَ لا شيء. وعندها، بعد أن تكون قد اختبرتَ الله بالفعل، يمكنك أن تلجأ إلى عقلك لتُخبر الآخرين شيئًا عن الخالق. ولكن ليس أكثر ممّا كشفه الله نفسُه لكَ عن نفسِه.

في الحياة الأكاديميّة، نحاول أن نفهم شيئًا وأن نكتشفه بأيّ ثمن. إلّا أنّ حياتنا الروحيّة تكشف لنا أنّ بعض الأشياء يستحيل فهمُها من حيث المبدأ.

التواضع هو الجوهر كلُّه!

س: هل هكذا يتواضع الإنسان؟

ج: التواضع هو الألف والياء في الطريق الروحيّ. لأنّ: "الله يقاوم المستكبِرين، وأمّا المتواضعون فيُعطيهم نعمة" (1 بطرس 5: 5). كان القدّيس العظيم غريغوريوس بالاماس يُصلّي باستمرارٍ قائلًا: "يا ربُّ، أنِرْ ظلمتي". التواضع - فيه يكمن الجوهر كلُّه!

لا ينطبق هذا على الحياة الروحيّة فحسب، بل على الحياة الأكاديميّة أيضًا. تساعدنا مهاراتُ البحث العلميّ النزيه على أن نرى الله كما عبر شخصٍ وعبر الكون المرئيّ، وعلى أن نتواضع. عندما يَصِلُ الأكاديميّ، في بحثه العلميّ، إلى ألغازِ الوجود غير المحلولة، يتوقّف إذ يشعر بعجزه عن معرفة أيّ أمرٍ إضافيّ. حينها يبدأ القيام بعمله بتواضع. هذا هو "التواضع"، المغزى الكامل للعلم الحقيقيّ.

س: إذًا لماذا، بعد أن اكتشفتَ أعظم اكتشافاتك، لم تستمرّ في القيام بعملكَ بتواضع، بل أصبحتَ راهبًا؟

ج: عندما تسنح لكَ الفرصة للطيران إلى السماء، لا تُطيقُ أن تتجوّلَ على الأرض.

س: سيّدنا نيقولاوس، ماذا يجب أن يفعل أولئك الذين لم يختبروا بعد مثلَ هذا التحليق الروحيّ؟

ج: أن يُصلّوا. إذا كنّا لا نُلاحظ المعجزات، فنحن لا نراها لأنّنا لا نعرف كيف نُصلّي. إذا أردنا أن نرى معجزاتٍ عظيمة، يجب أن نصبح أشخاصًا يُجيدون الصلاة.

في الصلاة، يتّحد قلبُنا بالمسيح

س: كيف يمكننا أن نتعلّم الصلاة؟

ج: يحاول هذا العالم بشتّى الطرائق أن يصرفنا عن الصلاة، إذ يحشو عقولَنا بمختلف المعارف والمعلومات التي يَفترض أنّها ضروريّة. في الواقع، يمكن أن تكون للجهل قيمةٌ تُضاهي خبرة عدم الإيمان. أفرِغْ قلبكَ من كلّ قلق. تعلّمْ تقليل الانتباه لما يُشتّت. قال القدّيس إسحق السريانيّ إنّه في الصلاة تُماتُ جميع الحواسُّ الخارجيّة، بينما تستيقظ الحواسُّ الداخليّة. أحيانًا، يشبه الأمرُ قيامةَ لعازر الرباعيّ الأيّام: "هلمَّ خارجًا!"، في الصلاة تسمع النفسُ صوتَ المخلِّص وتخرج من الإطار الفاني الذي لهذا العالم.

قد تقول: "هذا صعبٌ على الأرجح". أجيبكَ: "صعبٌ، لكنّه ضروريّ. وهو ليس مستحيلاً". علينا أن نبدأ بالأمور الصغيرة: قد لا تقرأ صلوات الصباح كلّها في بادئ الأمر، لكن علينا أن نُصلّي ولو قليلًا.

س: على العكس، غالبًا ما يرغب المبتدئون في القيام بجهاداتٍ عظيمةٍ فورًا.

ج: إنّها لَمشكلةٌ إذا ما وُجِدت مثلُ هذه الرغبة. حتّى السائقون يعرفون أنّنا لا نستطيع الانطلاق بالسرعة الخامسة، بل بالأولى.

س: هل لديكَ توصيةٌ حول الطريقة الأفضل للبدء في تعلُّم الصلاة: هل بالاجتهاد في صلاة البيت أم في صلاة الكنيسة؟

ج: هما أمران مختلفان: عندما نُصلّي في الكنيسة، نصعد إلى محطّةٍ مداريّة، ونتحرّك في مسارٍ تحقّقَ منه الآباء القدّيسون. وعندما نُصلّي في الخلوة، ننشئ وسيلةَ النقل الخاصّة بنا وننطلق في رحلة! كلاهما مهمٌّ. عشر دقائق، هل هذا كثير؟ خمس دقائق؟ فقط، فليكُن ذلك من كلّ قلبك! عليكَ فقط أن تهدأ، وأن تفصل نفسكَ عن بُطلان اليوم الماضي أو القادم، وأن تُصلّي من كلّ قلبك!

س: وإذا كانت الصلاة تُقالُ بشكلٍ آليّ، فلا جدوى من قانونٍ صباحيّ أو مسائيّ كهذا، أليس كذلك؟

ج: بلى، عليكَ أن تقرأ تلك الصلوات على كلِّ حال. حتّى ولو آليًّا. بالطبع، نحن بحاجةٍ عمومًا إلى أن نُصلّي على نحوٍ صحيح. سيكون ذلك أفضل! لكن لا ينبغي لكَ أن تأكل في المطاعم فقط، بل عليكَ أيضًا أن تطبخ بنفسكَ أحيانًا. هل تفهم؟ هذا أيضًا يُعلّم التواضع. وبعد ذلك، نحتاج إلى أن نتذكّر باستمرارٍ أنّ ثمّة فرقًا كبيرًا بين ما يُسمّى "قراءة الصلوات" و"الصلاة". الصلاة هي عندما يبدأ قلبكَ بالتحرُّك في اتّجاهٍ معيّنٍ تُحدّده وصايا الإنجيل، ويتّحد بالمسيح. يجب أن نتعلّم الثقة بالله.

منذ مدّةٍ قصيرة، وقفنا أمام الإبيتافيون... لم يُصلَب الربُّ من أجلنا لكي نتعفّن في همومٍ كثيرةٍ فيما نحن أحياءٌ. لا ينتهي الفصح بأيّام أسبوع التجديدات.

مبادئ الحياة لمَن يسعون للقداسة

س: سيّدنا نيقولاوس، شارِكنا من فضلكَ بعضَ أسرار إتقان علم القداسة.

ج: سأذكر أربع كلماتٍ يونانيّة هي المبادئ الأساسيّة للحياة بالنسبة إلى الراهب الآثوسيّ الهدوئيّ، ولأيّ شخصٍ يسعى للقداسة.

"Ανάτασις" الصعود! لنرفعْ قلوبَنا! تمتلك نفسُنا إمكانيّة الوصول إلى علوٍّ لا يمكن تصوُّره. والإنسان الذي شعر اختباريًّا بأنّ هذا حقيقيٌّ يشبه الملائكة أكثر ممّا يشبه البشر. تتوافق حالتُه أكثر مع الوجود في ملكوت السموات، ولا تُقارَنُ بالحالة التي يعيش فيها بقيّة الناس على الأرض. لا يعود بحاجةٍ إلى الدفاع عن الله والكنيسة في النقاشات؛ فالناس مِن حوله لا يعود لديهم أيّة أسئلة. هذا لأنّ نفسَهُ قد ارتفعت عاليًا جدًّا. هذا جزءٌ من قدراتِ نفوسنا!

"Έκστασις" الخروج من الذات. في أفعالنا كلِّها، يجب أن يوجد حافزٌ لتخطّي الحدود المعتادة. نحن نفعل كلَّ شيءٍ من أجل الله! ففي النهاية، هل هناك أيُّ شيءٍ أهمّ من الله؟! نحن نثِقُ بمنطقنا، وبعِلمنا، وبالأخبار التي نسمعها بين الحين والآخر، فلماذا لا نستطيع أن نثق بالله؟! إنّه دائمًا أبعد من حدود الطبيعة البشريّة الساقطة. هذا لا يعني أنّ جوهر الإنسان يجري تجاوزه (إلغاؤه)، لكنّنا مدعوّون إلى الخروج من حدود عاداتنا، وأهوائنا، وخطايانا.

لكي يحدث هذا، يتطلّب الأمر **"έντασις" جهدًا داخليًّا**، يأتي من خبرة الجهاد النُّسكيّ. يجب أن نجاهد نُسكيًّا بمثابرة. "ملكوت السماوات يُغصَب، والغاصبون يختطفونه" (متّى 11: 12).

وهذا الجهد ينتهي **بالامتداد "έκτασις"**، أي تمدُّد الطبيعة البشريّة إلى ما هو أبعد من قدراتها.

نحن أنفسنا لا نعرف ما يخفى في داخلنا

ثمّة إمكاناتٌ غير محدودةٍ مخبّأةٌ داخل كلّ واحدٍ منّا، إنّها نائمّة فقط. "اسهروا وصلُّوا" (متّى 26: 41)، كما أوصانا الإنجيل. تسمح لنا جامعةُ الكنيسة باكتشاف هذه الإمكانات. وعندما نُحرّرها، يمكن لنفوسنا أن

تكون في معيّةٍ دائمةٍ مع الله. هذا ما تحدّثَ عنه الشيخ باييسيوس في لقائنا الأوّل، لكنّني لم أستطع فهمه حينها...

ولكن، في الواقع، لا يعرف القدّيسون، وأيّ رجلٍ من رجال الله، أنّهم يستطيعون أن يُصلّون هكذا طويلاً ويصومون هكذا كثيرًا وببساطة، وما إلى ذلك، إلى أن يبدأوا في عيش نمطِ حياةٍ نسكيّ. إن لم يكشف الله لهم أنّه قادرٌ على ذلك، فإنَّهم لا يعرفون ذلك بأنفسهم.

س: بالفعل، كما يقولون، القدرة تأتي من الخبرة...

ج: لهذا السبب، علينا أن نبدأ العيش مع الله، لكي ينكشف كلُّ عمقِ إمكانات طبيعتنا أمامنا قبل أن تُغلَقَ أعيُننا. كلُّ واحدٍ منّا هو مشروع قدّيس. من المؤسف أن نموت من دون أن نكون قد جرّبنا شيئًا كهذا، ألا توافقني؟

حياة الكنيسة مليئةٌ كلُّها بأمثلةٍ عن شجاعةِ أشخاصٍ قرّروا العيش مع الله. تخيّل، لم يكن العالم ليعرف القدّيس سيرجيوس رادونيج أو القدّيس سيرافيم ساروف، وهم أنفسهم لم يكونوا ليعرفوا القوى المخبّأة في نفوسهم لولا خبرة الكنيسة!

مع ذلك، لا يكمن معنى الحياة في تحقيق أهدافٍ قصوى، بل في التواضع، ومن خلال التواضع يعطي الربُّ نفوسَنا الفرصة لأن تنفتح بالقدْر والاتّجاه اللّذين يُرضيانه.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Olga Orlova and Met. Nikolaos of Mesogaia and Lavreotiki (2019). *Each One of Us is a Potential Saint*. In *OrthoChristian*.